الفصل الأول

تدريب الأولاد

عليك بالعصا

حين تقول لبعض الآباء إنه ينبغي تأديب أطفالهم بالعصا، يردون: «إن تقديم النصيحة أسهل من تنفيذها!». لقد استضفت في منزلي أطفالاً مزعجين بمقدورهم إصابة مطحنة القمح بانهيار عصبي، أمّا آباؤهم فيشبهون أسرى الحرب. ولو أنّي قضيت أكثر من ساعة معهم، لتمنّيت ألّا أنجب أطفالاً قط. فبينما نحن نحاول الجلوس وتجاذب أطراف الحديث، كان الأطفال يخرجون ويدخلون في هرج ومرج غير منقطع ويشتكون من سوء معاملة الأطفال الآخرين، أو يطلبون المغادرة أو البقاء معنا أو تناول الطعام، أو يطالبون بلعبة لا يريد طفل آخر التنازل عنها. وتضطر الأم إلى القفز لإنقاذ قطعة زينة قابلة للكسر، وتقول لهم: «لا» ستمائة وست وستين مرة في خلال ساعتين. وتصفع[1] كل طفل مرتين أو ثلاث مرات -عادةً بباطن اليد على الحفاضة. ولا يبدو ذلك الصفع مجدياً، فضلاً على أنه يضرّ العمود الفقري للطفل.

---

[1] في هذا الكتاب، كلمة «يصفع» تستخدم أساساً بمعنى الضرب على المؤخرة بباطن اليد، كما يُفعَل مع الأطفال الصغار للعقاب.

وعندما نتحدث عن مجازاة كل مخالفة بعلقة (لا بضربة كاراتيه على العمود الفقري)، ترى تلك الأم أنّ هذه وحشية زائدة لا تجدي مع أطفالها نفعاً. وينحصر تأديبها لهم في إحاطة نفسها بسور واقٍ ليتوفّر لها متسع من الوقت لأداء المهمة التالية. وهي لا تهدف إلى إخضاع إرادتهم، بل إلى شَغلهم أو إلهائهم لتقوم هي بواجباتها المنزلية.

ثم تدخل أُمّ أخرى مع صغارها وتجلس للحديث. وتقول لهم: «اذهبوا إلى حجرة اللعب ولا تزعجوا ماما حتى تحتاجوا شيئاً». ولا نحسّ بوجودهم طيلة الساعتين التاليتين، حتى تأتي طفلة منهم طالبة من والدتها دخول دورة المياه. مثل هؤلاء الأطفال يحسنون اللعب مع بعضهم البعض، ويحلّون النزاعات بينهم بأنفسهم، ولا يتوقعون من الجميع الالتفات إليهم حين يقعون من فوق الحصان الخشبي فتصطدم رؤوسهم. كما لا يداومون على الخروج والدخول بعد أن تنهاهم والدتهم عن ذلك. هذه الأم لم تصفع أطفالها ولا مرة واحدة أثناء وجودها في منزلي، ولم تضطر قط إلى توبيخهم. أيضاً كانت مستريحة. وعند ندائها على الأطفال للعودة إلى البيت، قال أحدهم: «ماما، هل يمكن لي البقاء واللعب مع سوسانا؟» فأجابت ماما: «لا، ليس اليوم. فإنّ علينا إنهاء بعض الأعمال في البيت». فإذا به يرفع ذراعيه لتلتقطه أمه بحنان، ثم يحتضن عنقها ويقول لها: «أنا أحبك يا ماما».

قالت لي هذه الأم الشابة: «أطفالي يريدون إرضائي. ويحاولون قدر طاقتهم عمل كل ما أوصيهم به. إننا نستمتع بالوقت معاً غاية الاستمتاع». إنها تتطلّع إلى أن تُرزَق بالمزيد من الأطفال، ذلك لأنهم يُدخِلون السرور على حياتها. لكن الحال لم يكن هكذا من قبل.

بنعمة الله وبواسطة المباديء الكتابية البسيطة الموجودة على هذه الصفحات، وأيضاً بعزيمة وقلب مفتوح، درّبتْ هذه الأم أطفالها فجلبوا لها السرور والكرامة.

إن التأديب، مهما بلغ، لا يعوّض عن نقص التدريب. فالتدريب الصحيح ينفع مع كل طفل. وإهمال التدريب يخلق المتاعب والبؤس لك ولأولادك. لعل الكثيرين منكم -بدافع الجهل البريء- تجنّبوا التدريب وتوقعوا من التأديب وحده أن يقوّم سلوكهم.

«**انــــتباه!!**»

عندما يلتحق الشباب العنيدون بالجيش، يتعلمون -قبل كل شيء- الوقوف بلا حِراك. جميع تدريبات التشكيل العسكرية تهدف ببساطة إلى إخضاع الإرادة. وكلمة «اااانتباه» هي بداية كل المناورات. تصوّر مدى ارتياحك إذا حصلت بأمر واحد على انتباه طفلك وتركيزه الكامل. قد يأمر الرقيب جنوده بالوقوف في وضع الانتباه، ثم يتركهم «متخشّبين» في ذلك الوضع -بدون إيضاح-

حتى يتساقطوا من الإعياء. ولا يكون للأوامر الأخرى أية قيمة في الحرب إلاّ إذا كان الجنود قد اعتادوا الطاعة الفورية التامّة.

والبيت مثله مثل الجيش، حيث أنّ جميع المناورات تبدأ بنداء للفت الانتباه. إنّ ثلاثة أرباع المشاكل المنزلية يمكن حلها على الفور لو أنّك استطعت في أي وقت لفت انتباه طفلك بهدوء تامّ. ومثلما يأمر الصول جنوده: «للخلف دُر. معتاداً سِر!»، فيطيعونه، يمكنك أنت أيضاً ترجمة ذلك بلغة البيت فتقول: «اترك الحجرة» أو «اذهب إلى فراشك»، فيستدير الطفل ويذهب دون نقاش. هذا طبيعي في الأسر التي أحسنت تدريب أولادها.

«هِس يا حصان»

نحن نعيش في مجتمع ريفي حيث يكثر استعمال العربات التي تجرها الخيل، ودائماً يوجد مَن يروّض حصاناً جديداً. حين تستقل عربة من هذه وتذهب إلى طريق عمومي ضيّق وملتوٍ، مزدحم بعربات ضخمة وقاطرات شحن الأخشاب، يجب أن يكون تحت سيطرتك حصان غاية في الخضوع. ولا يمكنك الارتكان حينئذٍ إلى ضربه بالكرباج ليخضع لك، فخطأ واحد على الطريق العمومي قد يُودِي بأرواح الناس.

أولاً، يتم تدريب الخيل على الوقوف دون حِراك والخضوع لمن يمسك بها. يجب ألاّ يخشى الحصانُ اللجامَ أو «العدّةَ». إنما يجب أن يقف ساكناً في حين يخطو الأطفال أمام العجلات

الحديدية ليستقلوا العربة. وعندما يتم إيقافه عند ملتقى الطريق، ريثما تمر السيارة القادمة في الاتجاه المقابل، يجب ألا ينفذ الحصان إرادته ويخطو أمام شاحنة مسرعة يزيد وزنها على ٣٥ طنا.

ينبغي أن تسبق الأحداث فتدرب الخيل على كل الحوادث المحتملة. ويحدث هذا في بيئة محكومة حيث يتم خلق مواقف لاختبار وتكييف ردود أفعال الخيل. يتم تعويد الحصان أولا على السرعات المختلفة، فتمسك باللجام وتسوق الحصان، ثم تقول: «قف» ثم تتوقف. وحيث أنك ممسك باللجام بإحكام، يضطر الحصان إلى التوقف. وهكذا بعد عدة مرات ستجد أن الحصان سيتوقف بمجرد الأمر.

والمدرب هو الذي يحدد النبرة التي يستجيب لها الحصان. فإذا قلت «قف» بصيحة عالية، فلن يتوقف الحصان بعد ذلك إلا إذا عليت صوتك وأنت تأمره. قد عود أحد المزارعين حصانه على صيحة عالية هائجة، فكانت النتيجة أن غالبية جيرانه، الذين يتحدثون إلى خيولهم بصوت هادىء، يجدون صعوبة جمة في التحكم في حصانه بسبب عجزهم عن رفع صوتهم بتلك الشدة.

فقط كلمني

ذات مرة كنت أقطع أشجارا ومعي بغل يزن سبعمائة كيلوجراما، وكان البغل يريد أحيانا أن يهرب بالأخشاب. وفي لحظات من التوتر (أو قل من الفزع)، وجدت نفسي أصرخ فيه

باهتياج وآمره بالتوقف. فكان صاحبه ينذرني: «تكلم بهدوء وإلاّ فلن يسمع لك». في الحقيقة أنا لم أستطع أن أتعلم الحديث بهدوء مع بغل هارب يجرّ شجرة بلوط طولها ثمانية أمتار وقدمي معلّقة في سلسلة العدّة. لكن الجدير بالذكر هنا هو أنّ الحيوان لا يتعلم تمييز الصوت فقط، بل أيضاً نبرة الصوت.

كذلك إذا رفعت صوتك وأنت تأمر طفلك، سيعتاد على أن يقرن نبرتك وعلو صوتك بما تريد منه. فإذا درّبته هكذا، لا تلومنّه إذا تجاهل أول ثلاثة عشر «اقتراحاً» ريثما تبلغ حدة صوتك درجة عالية تجبره على تفسير كلامك على أنه أمر.

التدريب، وليس التأديب

«دَرِّبَ الْوَلَدَ بِمُقْتَضَى مَوَاهِبِهِ وَطَبِيعَتِهِ، فَمَتَى شَاخَ لاَ يَمِيلُ عَنْهَا» (أمثال ٢٢: ٦، ترجمة كتاب الحياة). يقول الكتاب: درّب، ولا يقول: أدّب، أو اضرب، أو هذّب، أو شجّع. التدريب هو العنصر الناقص في تربية الأولاد، وهو ليس مثل التأديب. طبعاً يحتاج الطفل إلى أكثر من التدريب على الطاعة، لكن بدون هذا التدريب يكون كل شيء آخر غير كافٍ.

لا يجب أن ينتظر الآباء حتى يسوء تصرف أطفالهم ويصير غير مقبول قبل البدء بالتدريب- فهو لا يكون تدريباً إذن، بل تأديباً. والتأديب جزء من التدريب لكنه لا يكفي وحده لتحسين السلوك. فالتدريب هو تعويد ذهن الطفل وتكييفه قبل وقوع الأزمة .. إنه

إعـداد لطاعـة مسـتقبلية فوريـة بـلا نقـاش. فالريـاضي مثـلاً يتـدرب قبـل المسـابقة، وكذلـك الحيوانـات -ومــن ضمنــها الوحــوش البريــة- يتــم تعويدهـا علـى الاسـتجابة لأوامـر المـدرب.

إنّ الإحبــاط الــذي يصــاب بــه الآبــاء هــو مــن صنعــهم ونتيجــة جهلـهم. فمشـكلتنا ليسـت أطفالنـا «الأرديـاء»، بـل تدريبنـا الـرديء. ولا اسـتثناء في ذلـك: فـالطفل العنيـد والطفـل الزائـد النشـاط والطفـل المفـرط الذكـاء والطفـل المَلُـول، كلــهم يحتــاجون إلى التدريــب، والتدريـب ينجـح مـع جميعـهم.

ولتفـهم، يـا عزيـزي القـاريء، أننـا عنــد هــذه المرحلــة لا نتحــدث عــن تنشـئة أطفــال مسـيحيين أتقيــاء، بــل أطفــال سـعداء ومطيعــين. وهــذه المبــادئ الخاصــة بتدريــب الأطفــال علــى الطاعــة الفوريــة يمكـن للمسيحيين وغـير المسـيحيين علـى السـواء أن يطبقوهـا.

التدريب علــى عـدم اللمـس

تدريــب الطفــل يجلــب الرضــا، وهــو أمــر ســهل ممتنــع. فمنــذ استطاع أطفالي الحبو، بـدأت جلسـات التدريـب.

جرّب بنفسك. ضع شيئاً مُغرياً بـالقرب منـهم، مثـلاً في ركـن ممنـوع أو علـى طاولـة العصـائر (كنـا نسـميها طاولـة الشـاي قبـل أن نتوقـف عـن شربه). فسرعان مـا يلتفتـون إليـه ويتحركـون باتجاهـه. حينئـذٍ، وبصـوت هــاديء، قُــل: «لا، لا تلمســه». وهــم ســيكونون قــد أَلِفــوا كلمــة «لا»، فيتوقفـون لحظـة وينظـرون إليـك في حـيرة ثـم يسـتديرون إلى الشـيء

ويمسكونه. السعهم بالعصا على اليد مرة واحدة وأنت تقول: لا. تذكّر أنك لا تقوم بتأديبهم الآن، بل بتدريبهم. لسعة واحدة بعود ليّن تكفي. سوف يسحبون أيديهم مرة ثانية ويتأملون العلاقة بين الشيء، ورغبتهم، والأمر، والألم البسيط المدعّم له. قد يتطلب الأمر عدة مرات، لكن إذا واظبت بتصميم سيتعلمون أن يواظبوا على الطاعة، حتى في غيابك.

اغرس شجرتك في وسط الجنة

حين شاء الله «تدريب» طفليه الأوَّلين على عدم اللمس، لم يضع الشجرة المحرمة بعيداً عن متناولهما، إنما وضع «شَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ... وَسَطِ الْجَنَّةِ» (تكوين ٢: ٩، ٣: ٣). وحيث أنها في وسط الجنة، فلابد أن يمرّا بها باستمرار. لم يكن هدف الله إنقاذ الشجرة، إنما تدريب أبوينا الأولين. ولتلاحظ أن اسم الشجرة لم يكن «شَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الشَّرِّ»، بل «شَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ». ولو كانا استعملا إرادتهما في عدم الأكل، لكانا تعلّما معنى «الْخَيْرِ» مثلما تعلّما معنى «الشَّرِّ». كان الأكل طريقاً مختصراً للمعرفة، لكنه لم يكن سبيلاً ضرورياً.

والجمال في هذا هو أنه كلما مرّ الأطفال بعد ذلك بالشيء الممنوع (شجرة معْرفة الخير والشّرّ الخاصة بهم)، اكتسبوا معرفة بالخير والشر من موقع الانتصار. ومثلما حدث مع آدم وحواء في الجنة، ليس للشيء أو للمسه أي قيمة حقيقية في ذاته، إنما إلحاق أمرٍ به هو الذي يجعله «مصنعاً» أخلاقياً لإنتاج الخُلُق. ونتيجة لما

تفرضـه أنـت مـن قوانـين، يتعلّـم أطفـالك عـن الحكـم والواجـب والمسـؤولية الأخلاقيـة، وأيضـاً في حالـة الفشـل يتعلّمـون عـن تأديـة الحسـاب والثـواب والعقـاب. أمّـا في الوضـع الراهـن، فـهم يتعلّمـون ألاّ يلمسوا، مما يجعل الطفـل مقبـولاً ولطيفـاً في المحيـط الاجتمـاعي.

لا يسـتلزم الأمـر سـوى بضـع دقـائق لتدريـب الطفـل علـى عـدم لمس شـيء مـا، ويمكـن في غضـون ثلاثـة أيـام تعويـد أغلـب الأطفـال علـى الخضـوع الكـامل بفـرح. لذلـك إذا واظبـت علـى تدريبـك لهـم بأمانـة، سـيظل الأطفـال سـعداء وطيّعـين. والمقصـود بالطاعـة هـو ألاّ تضطـر إلى تكـرار الأمـر مرتـين. إذا توقّعـت الحصـول علـى طاعـة فوريـة، ودرّبتـهم علـى ذلـك، كُلِّـل جـهدك بالنجـاح. ولا شـك أن التدريـب يسـتغرق وقتـاً إضافيـاً، لكـن بمجـرد خضـوع الأطفـال بوجـه عـام، توفّرُ وقتـاً هـائلاً. يحلـو للبعـض القـول: «أمّـن بيتـك مـن الأطفـال» أمّا أنا فأقول: «أمّن الأطفال من بيتـك!».

مواقف حرجـة

هـل وقعـت ذات مـرة ضحيـة للأيـدي الصغـيرة المُحِبّـة للاسـتطلاع. إن الطفـل الصغـير، حتـى قبـل أن يتعلـم المشـي، جُبِـل علـى الشـغف بالإمساك بكل مـا يثـير اهتمامـه. ولا عيـب في ذلـك، إلاّ أنـه قـد يكـون مزعجـاً في بعـض الأوقـات. مثـلاً، إذا أمسـكت بطفـل ودأب الطفـل علـى محاولـة شـد نظـارتك، فلـن يمكنـك أن تشـرح لـه قبـح هـذا السـلوك الاجتمـاعي الفـظّ. في هـذا السـنّ لا يتـأثر الطفـل الصغـير بـالخوف مـن الرفـض، فـهل تحـاول يـا تـرى تقييـد حركتـه بحيـث لا

يستطيع الوصول إلى وجهك؟ لا، بل درّبه ألاّ يلمس. وما أن يتدرّب الطفل على الاستجابة لكلمة «لا»، تكون علّمته ألاّ يقترب من أي شيء ممنوع.

استعدّ للتدريب. أمسكه بحيث يمكنه الوصول إلى نظارتك بسهولة، وانظر في عينيه مباشرةً. وحين يهِمّ بمد يديه نحو النظارة، لا ترجع إلى الخلف؛ لا تدافع عن نفسك. بل قل له بهدوء: «لا». واحرص على أن تخفض صوتك ولا تعلّيه. ولا تكُن أكثر جدّية من المعتاد. تذكّر أنك ترّسخ نمطاً أو نموذجاً للأوامر يدوم معه العمر كله. وحين يلمس النظارة مرة أخرى، قل: «لا»، وأرفق أمرك بشيء من الألم. حينئذٍ سيسحب يده ويحاول أن يستوعب الصلة بين خطف النظارة والألم (أنا عن نفسي كنت اخبط يده الصغيرة بإصبعي. ولم يبكِ أحد من أولادي قط. الطفل لا يدرك أنك أنت الذي فعلت ذلك، إنّما يظن أن النظارة، أو حتى كلمة «لا» نفسها، هي التي سبّبت الألم). وحتماً سيعود إلى التقاط الطُعم ليختبر نظريته الجديدة، فيجد أن النظارة سببت له الألم مثلما توقّع، وأن الألم تصحبه دائماً كلمة «لا» الهادئة. وقد يستغرق الأمر مرتين أو ثلاث مرات حتى يُقلِع عن حِرفة خطف النظارات، لكنه حتماً سيكُفّ عن ذلك.

من خلال عملية المصاحبة هذه، سيسترجع الطفلُ الألمَ رغم إرادته كل مرة يسمع فيها كلمة «لا». ومع الوقت تكون كلمتك وحدها كافية لإنتاج الطاعة.

وبنفس الطريقة يمكنك منعه من الإمساك بالرضّاعة من الحلمة وضرب أمه بها. والمبدأ عينه يسري على شدّ الشعر واللحية. يمكن تدريب الطفل على طاعة كل أمر يخطر ببالك. هل تريد أن تصارع معه طيلة شبابه، وتلح عليه بالخضوع، مهدداً، مبعداً عنه كل شيء ثمين، وخائفاً ممّا قد يتلفه؟ أليس من الأفضل تكريس بعض الوقت للتدريب؟ أقل ما يفعله التدريب هو توفير الوقت عليك.

أعرفُ أمّاً تضطر إلى استدعاء جليسة أطفال كل مرة تدخل الحمام لتستحم. مع أن الأم تستطيع أن تغفو قليلاً أثناء النهار لتستريح وتتوقع عند نهوضها أن تجد البيت مرتباً.

التدريب على الطاعة - الرضع العضاضون

إحدى الخبرات المؤلمة للأمهات المرضعات أن يُرزقن برضيع يعضّ. لم تضيّع زوجتي الوقت في البحث عن علاج. فكلما عضّ الرضيع، شدّت هي شعره (يجب البحث عن بديل في حالة الرضيع الأصلع). وليفهم القاريء أنّ الأم هنا لا تعاقب الطفل، بل تعوّده وتكيّفه. فالرضيع يتعلّم أن لا يُدخِل إصبعه في عينيه أو يعضّ لسانه بسبب ما يصحب ذلك من نتائج سلبية. وهذا أمر لا يتطلب فهماً أو إدراكاً؛ إذ يتم اختزان هذه المعلومة في مكان ما في المخ، وبعد عضّتين أو ثلاث عضّات، مع ما يصحبها مع الشعور بالألم، يبرمج الطفل هذه المعلومة بما يعود عليه بالارتياح. من ثمّ يتم علاج عادة العضّ قبل أن تبدأ. وهذا ليس تأديباً؛ إنما هو تدريب على الطاعة.

التدريب على الطاعة - السلطانية والرضع

تُبعِد الأم سلطانية البليلة عن طفلها الصغير الذي يصارع معها للإمساك بها. وحين تضع السلطانية بعيداً عن متناوله، يتعلّم أنها ممنوعة عليه فقط لأنها بعيدة عن متناوله. من أجل تدريبه، توضع السلطانية بالقرب منه، وحين يمد يده، قولي له: «لا»، واخبطيه على يده. سيسحب هو يده، ويبدو عليه الفزع للحظة، ثم يعاود الكَرّة من جديد. كرّري قول «لا» بصوت هادىء مع خبطه على يده. بعد عدة مرات، تستطيعين أن تأكلي في سلام وراحة بال.

عند نطق كلمة «لا» وخبطه على اليد في آنٍ واحدٍ عدة مرات وفي مناسبات مختلفة، سرعان ما يصير الأمر الملفوظ وحده كافياً لتشكيل السلوك. مرة ثانية نردد: هذا ليس عقاباً للطفل، بل تكييف وتعويد. الخبطة ليست بديلاً لعصا التأديب، إنّما هي تعضيد للتدريب على الطاعة.

تعال عندما أناديك

أخبرنا أحد الآباء عن جلسات تدريبه مع كل طفل صغير، فقال إنه يخصص أمسية يعتبرها بمثابة «معسكر تدريب» لطفله حين يكون بين سن عشرة أشهر وسنة. يترك الأب الطفل لينشغل بلعبة ما أو شيء يثير اهتمامه، ثم ينادي عليه من طرف الحجرة الآخر أو من الحجرة المجاورة، فإذا تجاهل النداء يذهب إليه الأب ويشرح له ضرورة المجيء في الحال عند ندائه، ثم يقوده إلى الكرسي

الذي كان يجلس عليه الأب. قيادة الطفل في هذه الخطوات تغرس فيه منهجاً أو برنامجاً للسلوك.

ثم يُعَاد إلى اللعبة ويُترَك وحده مدة كافية للانشغال بها من جديد. بعدها يعلو نداء آخر من الأب، فإذا لم يلقَ استجابة، يقدّم الأب شرحاً وتوضيحاً وبياناً متأنياً للاستجابة المرغوبة. بعد أن يتأكد الأب من فهم الطفل، يعيد الكُّرَة من جديد ويناديه. هذه المرة، إذا لم يلقَ الوالد استجابة فورية، يتم صفع الطفل على مؤخرته صفعاً خفيفاً وتأنيبه. يواصل الأب هذه العملية طوال المساء إلى أن يلبّي الطفل النداء طوعاً. وهكذا يُتوقَّع من الطفل -إلى حين مغادرته المنزل في الكبر- أن يترك كل شيء ويحضر عند أول نداء. وطالما واظب الوالدان على ذلك، واظب الطفل على الطاعة. للتكرار نقول: هذا «التدريب على الطاعة» يتمّ إجراؤه في أقصى درجات الصبر والتركيز. كما لا يجب اعتبار الصفع عقاباً، بل تدعيماً للأوامر.

التدريب ممكن مهما كان الطفل صغيراً

الأبوان اللذان يؤجّلان تدريب الطفل إلى أن يكبر ويستطيع أن يناقش أو يقبل الشرح، يجدان ابنهما قد صار مصدر رعب لهما من قبل أن يدرك معنى الكلمة. الوليد الحديث يحتاج إلى التدريب سريعاً، تماماً مثلما يحتاج إلى اللمس والحضن والحب والعناية، لكنّ الأم تنشغل في أحيان كثيرة بواجباتها الأخرى.

حين تمسك الأم برضيعها وتنحني على المهد (سرير الطفل) لتنوّمه، «يتخشّب» الرضيع ثم يأخذ نفساً عميقاً وينفجر في الصراخ. منذ ذلك الحين يبدأ الصراع على السيطرة بِجِدّية. وأحدهما يجب أن يتعوّد: إمّا أن تخضع إرادة الأم ذات القلب المرهف لهذه الرغبة الأنانية (ومن ثم يتعوّد الطفل على تنفيذ إرادته بالبكاء والعويل) أو يُترَك الرضيع ليبكي (فيتعلّم أن البكاء يحقق عكس المطلوب). لا شك أنّ البكاء بسبب احتياج جسماني حقيقي هو وسيلة الطفل الوحيدة للتعبير والاتصال بالعالم الخارجي؛ لكن البكاء بغرض التحكم في الأبوين واستعبادهما لرغباته لا يجب مكافأته أبداً، وإلاّ قوّيت أنانية الطفل المتزايدة فيصير فيما بعد منبوذاً اجتماعياً.

خطوات نحو الطاعة

تعلّمت إحدى بناتنا المشي مبكّراً وصارت مولعة بصعود السلم. كانت حينئذٍ قد بلغت أربعة أشهر وهي لا تدري معنى العقاب أو العصيان. مع ذلك حاولنا لمصلحتها تدريبها على عدم تسلق السلم بتنسيق الأمر المنطوق «لا» مع لسعات خفيفة على ساقيها العاريتين بعصا طولها ٣٠ سنتيمتراً وقطرها نص السنتيمتر من شجرة ليّنة.

لكن ولعها بتسلق السلم كان من الشدة بحيث لم تكفِ أربع أو خمس جلسات تدريب لإيقافها، ولم يطاوعنا قلبنا على ضربها أكثر من ذلك. ففكّرت في بديل آخر: بعد ضربة واحدة أخرى، وضعت العصا على أدنى درجات السلم. فلاحظنا بعد ذلك أنها تحبو باتجاه

السلم وتبدأ الصعود، ثم تتوقف عند أول درجة وتحملق في العصا. وكانت النتيجة أنها تراجعت إلى الوراء ولم تعاود تسلق السلم، حتى بعد إبعاد العصا.

التأديب المفرط

يجوز أن تصبح الإجراءات التأديبية مفرطة ومتعسّفة في غياب التدريب والاعتماد على التأديب وحده ليقوم مقام التدريب. قد لاحظت آباء متكبرين صارمين يحكمون بيوتهم بحزم ويحرصون على وضع كل فرد من أفراد الأسرة في محله. ينهالون على أولادهم بالضرب، خصوصاً في محضر الغرباء. ويرتعد الأطفال في حضور مثل هذا الأب، مخافة إثارة سخطه. وطالما تساءلت: إذا كان الرجل على هذا القدر من الحزم والحرص على الطاعة، فلماذا لم يحصل على تلك الطاعة في السرّ، قبل ظهور الغرباء على المسرح؟ طبعاً يترك مثل هذا الحزم انطباعاً عند الغرباء، لكن ليس بالطريقة التي يرجوها هو.

فيما عدا الأطفال الصغار جدّاً، يمحو التدريب كل احتياج للتأديب .. وخصوصاً التأديب العلني. لكن حتى إذا اقتضت الضرورة إيقاع التأديب علناً، فخذ الطفل جانباً ووقّع عليه العقاب، ثم بعد الرجوع إلى البيت، قم بتدريبه بحيث لا يتكرّر ذلك علناً.

تدريب الولد المشاكس

جلست ذات مرة أتحدث مع صديق لي من جالية الآمِش الألمانية العريقة، فتطوّرت الزيارة إلى جلسة تدريب لابنه. كان الأب يمسك بابنه البالغ من العمر سنة واحدة، فإذا بالطفل يريد النزول والجلوس على الأرض. لكن بسبب برودة الأرض، أمره أبوه بالجلوس على حِجره. أمّا الطفل «فتخشّب» لينزلق من على حجر والده إلى الأرض. فكلّمه أبوه باللغة الألمانية (فلم أفهم ما قال) وأعاده بحزم إلى وضع الجلوس. لكن الطفل أصدر أصواتاً تعبّر عن المعارضة وواصل انزلاقه رغم إرادة أبيه. فصفعه الأب وخاطبه بكلمات أظن أنها كلمات تأنيب. أمّا الولد فلما رأى أمه عبر الحجرة، أخذ يبكي ويمد يديه إليها. وطبعاً هذا لم يتطلب شرحاً لأفهمه.

عندئذٍ استحوذ على الاهتمام، فغالبية الآباء يُسرّون بتسليم الطفل للأم لمتابعة حديثهم مع الضيف. وبات واضحاً أنّ الولد أدرك أنه سيحصل على المزيد من الحرية مع أمه. فلو سلّمه الأب لها، لأثّر ذلك على التدريب تأثيراً عكسياً، ولكان تعلّم أنّه إذا لم يحصل على رغباته، فما عليه إلاّ أن يتخطّى الأب ويحاول مع الرتبة الأدنى منه. أمّا الأم المخلصة، التي كان يهمها تدريب الولد أكثر من متعة تعلّق طفلها بها، فتجاهلته.

حينئذٍ أدار الأب ابنه بعيداً عن أمه. لكن الطفل العنيد لاحظ أنّ أرض المعركة تغيّرت، فعبّر عن تصلّبه بإطاحة رجله في الناحية

الأخرى ليواجه أمه. فصفعه الأب على الرجل التي أدارها ليواجه أمه وخاطبه مرة أخرى.

بات واضحاً أنّ الميدان جاهز للمعركة، وأنّ المعركة على قدم وساق. واحد من الاثنين يجب أن يخضع لإرادة الآخر ويتعلّم الدرس: إمّا أن يشهد الأب على أنّ هذا الطفل ابن العام الواحد يستطيع التحكم في والديه، أو يعزّز الأبوان سلطتهما عليه. سعادة الأسرة كلها كانت في الميزان، وكذلك مصير الطفل وخلاص نفسه. أمّا الأب فكان حكيماً، إذ عرف أنّ هذا امتحان للسلطة، وأنّ هذه الحادثة تخطّت حدود «التدريب على الطاعة» إلى عقاب لتصحيح اتجاه القلب.

لمدة ساعة إلاّ ربع بعد ذلك حاول الطفل عبثاً تحريك رجليه، فكان الأب يديره كل مرّة ويصفعه على رجليه. كان الأب متأنياً وهادئاً كل الهدوء، ولم يكن متسرّعاً أو غاضباً. أيضاً لم يأخذ هذا العصيان على محمل شخصي، فهو قد درّب خيولاً وبغالاً عديدة وكان يعرف قيمة الصبر والمثابرة. وفي النهاية، خضع الولد لإرادة أبيه، وجلس حيثما وضعه، وكان راضياً .. لا بل مسروراً.

قد يقول البعض: لكنّي لا أستطيع تحمل ذلك عاطفياً. أحياناً يكون من الصعب والمرهق تعطيل جدولك الخاص في سبيل تدريب أولادك. ولابدّ أن ينطوي الأمر على التضحية بأعصابك وحساسية مشاعرك. لكن ما هو الحب إن لم يكن بذلاً وعطاءً؟

وعندما نعلم أن ذلك يعود على الطفل بالخير الزمني والأبدي، سنحسبه فرحاً لا تضحية.

حيث لا تكون دوافعنا نقية، وحيث نشك في أنّ الغضب هو الحافز، يمنعنا ضميرنا المتألم من التحرك، ونخشى أن يكون تأديبنا سببه حبنا الأناني للتسلط. لذلك يجب تنقية شوائبنا الشخصية من أجل الطفل، لأنّه سيتألم كثيراً لو لم يتلقَّ هذا النوع من التدريب.

تأكد من شيئين:

١) تُتاح لكل طفل صغير فرصة أو فرصتان في حداثته يقرر عندها الإمساك بزمام الأمور بنفسه. وستجد أنّ عناده راسخ في نفسه بدرجة تبعث على الدهشة فتتساءل: كيف يكون مثل هذا البرعم الصغير مُصِرّاً ومداوماً على العصيان؟ هذا الإصرار هو ما ننتظره من زعيم ثوري مخضرم في مواجهة دروس غسل المخ في معسكر الأعداء! حتى الآباء الذين يتوقعونه والمستعدون والمواظبون على معالجته، ينبهرون من قوة إرادة الطفل الصغير.

٢) إذا واظبت وثبتّ على مبدئك، فلن يحدث هذا الامتحان للسلطة سوى مرتين أو ثلاث مرات في حياة الطفل. فإذا صبرتَ، وذلّلت إرادة الطفل، سيفوز الطفل على المدى البعيد. أمّا إذا ضعُفت وسمحت لإرادة الطفل بالانتصار، فانتصاره يكون بمثابة خسارة فادحة من حيث تشكيل أخلاقه وطباعه. لذلك يجب أن تثابر من أجل مصلحته ومصلحتك.

التدريب السلبي

كم من مرة شاهدنا تلك المصارعة تدور في السوبر ماركت! يجلس الولد المراوغ فوق عربة التسوق ويمارس «حقوقه كطفل» في إشباع جميع رغباته. فيوجّه الأب أو الأم العربة بعيداً عن «أشجار معرفة الخير والشر» المغرية، لكن عبثاً! لأن الطفل سرعان ما يلاحظ الشيء الذي يشتهيه قلبه ويطمع فيه. وإما أن يحصل الطفل على مراده أو «ينغّص عِيشة» والده ويسبب له الشقاء. وهو الرّابح في الحالتين.

أخبرنا أحد الأباء كيف كسب الموقف بشجاعة بأن وعد الطفل بقُمعٍ من الجيلاتي لو انتظر حتى مغادرتهم المتجر. لكن كل ما تحققه هذه المساومة هو تدعيم مخططات الطفل الإرهابية. أنت لا تسيطر على الطفل بهذه الطريقة، بل يسيطر هو عليك. كل طفل ينال تدريباً، إمّا عن طريق الإهمال والتهاون، أو التروّي وحسن البصيرة. كل ردود الأفعال التي تصدر عن الوالدين تكيّف سلوك الطفل وطباعه، ومن ثم تعتبر تدريباً.

شراء الخضوع

الوالدان اللذان يشتريان إذعان الطفل وتلبيته للأوامر بوعد بالمكافأة ينمّيان فيه الابتزاز. فيصير الطفل رجل العصابة أو عضو المافيا الذي يحصل على الإتاوة في مقابل توفير الحماية لك، يا رجل الأعمال المستضعف. إذا كنت تساوم مع إرهابي على مدّ

المهلة يوماً واحداً، فقد تكون الصفقة رابحة. لكن إذا كنت تدرّب طفلاً، فيعوزك أن تعيد النظر في أساليبك. أسلوب المساومة أو حلول الوسط يخلق طفلاً جسدانياً، غير منضبط، مملوءاً بالمرارة .. ويشبّ الطفل على ذلك دونما تغيير.

هل سمعت ما قلته؟

لاحظت أباً يأمر ابنه بألاّ يمسّ شيئاً معيناً. ونظراً لتعود الولد على تجاهل الأوامر اللطيفة، قبض الولد على الشيء. فأمره الأب: «أعطِني إياه». فتظاهر الولد بعدم السمع. «هل سمعتني؟ [طبعاً سمعه] أعطِه لبابا. [ثم بمزيد من الحزم] جوني، أعطِه لبابا. حالاً!! [ثم قال بطبقة صوت أعلى مع نبرة حادة غاضبة] جوني!! سوف أضربك!!» حينئذٍ انتبه الأب لنبرته المحرجة، فأخفض صوته وحاول إنهاء الموقف بالانحناء ومدّ يده ناحية الطفل، ليُسهّل على جوني تلبية الأمر. بسبب الصوت الغاضب والعينين المتقدتين اتخذ جوني وضعاً مؤقتاً وكأنه يقول: «دعنا نرى من سيكسب هذه الجولة!» وبدلاً من ملاقاة يد أبيه الممدودة في مذلّة، أمسك الشيء في مواجهته لكن وضعه قريباً من جسمه، مجبراً الأب على التقدم لاسترجاعه. وخضع الأب - مثل مزارع فقير يتلقّى إحساناً من شريف يتصدّق عليه - لإذلال طفله ومدّ يده لاسترجاع الشيء، ثم أبعده الأب عن متناول ابنه .. في ضعف بيّن.

فما الذي تعلّمه جوني من هذه الحادثة يا ترى؟ لقد تيقّن أنّه لا داعي لتلبية الأمر من أول أو ثاني أو ثالث أو حتى رابع مرة. فلا

أحد يتوقع منه ذلك! لقد تعلم أن يخطف أي شيء في متناوله ويبقيه في حوزته إلى آخر لحظة. وتعلم أيضا أن لا يحترم السلطة، بل يحترم القوة (وسيأتي يوم يكون هو فيه الأقوى). وقد كان أبوه قدوة له فتعلم منه كيف يستعمل الغضب. فلما تقدم منه أبوه ليأخذ الشيء من يده، تعلم كيف تكون الكلمة الأخيرة له وكيف يصمد على جموحه وتحديه. لقد نجح ذلك الأب في تدريب ابنه الصغير على التمرد.

وماذا تعلم الأب؟ أن ابنه الصغير «صلب الإرادة»، أن الأطفال يجتازون بمراحل نمو مزعجة، أن الأبوة أحيانا تسبب التعاسة والإحراج، أن الوالد عليه مراقبة صغيره كل دقيقة ويبعد كل شيء عنه، أن الأطفال لا يفهمون سوى لغة الإجبار والغضب. وطبعا كل هذا خطأ. فالأب إنما يحصد ما زرعه من «سوء تدريب».

بعد أن نلقي نظرة على طبيعة الطفل، سنشرح في بقية هذا الكتاب أساليب تدريب إيجابية كثيرة.